(٥)

العقل الخالق والعقل المخلوق

حديث الجمعة

٢٣ رجب ١٣٧٩ هـ - ٢٢ يناير ١٩٦٠ م

الحمد لله.. المَانِّ بعزته.. المانح بالذل له.. القادر المقدر.. الظاهر الباطن.. المعلوم المجهول.. المعروف المجحود.. الموجد الموجود.. الموحَّد المتحد.. المعلوم المنزَّه.. القريب المتعالي.. الحبيب المتكبر.. الباحث عن عبده بحث العبد عن ربه، الشاكر المشكور.. الرب المربوب.. المعبود العابد.. لا موجود بحق إلا هو..

أعطانا خلقنا خالقا، وأخذ بنواصينا هاديا. قاربنا فتعلمنا مقاربته، وتعالى عن إدراكنا، فتعالت معانينا فينا، عن إدراكها لنا.

سبحانه وتعالى عما يصفون. شرّف العقل، وأعزه، وأكرمه، وأكبره، وطوره. أوقفه بين يديه، يده فيه وحوله، وقال له من أحدهما: أقبل فأقبل، مجيبا أمر الأخرى بأدبر فأدبر. وغير موضع النداء مشيرا بالإقبال فأقبل وحال الأخرى بالإدبار فأدبر. فأدبر بين يديه إدبارا وإقبالا إلى أحدهما أو عن أحدهما، لأحدهما، وبالأخرى مأمورا ميسرا.. ثم قال له استقم كما أُمرت.. فاستقام بينهما لا مقبلا ولا مدبرا.. ولكن ملقيا السمع وهو شهيد.. مهرولا فيه بينهما عن نفسه وإلى نفسه.

بالعقل في إقباله وبالعقل في إدباره بين يدي الله، تخلَّقت عوالم الخلق، فتخلقت الملائكة نورانية مقبلة من حركة إقباله، وتخلق عالم الجن مطيعا منفطرا من حركة إدباره. فالعقل يد الله المنشئة للعَالَمين بحركته. أما خلق الله البشرية فمن استقامة العقل على ما أمر، لا مدبرا ولا مقبلا، متابعا لما أدبر من فعله من العقول ببصره أو متابعا لما أقبل من فعله من العقول ببصيرته. وقف في مكانه ملقيا السمع وقد انتفع بالبصر والبصيرة، وأتم فيهما تجربته مشغولا بنفسه وما تتلقى بعد أن أرجع البصر كرتين، فانقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير، وقد كشف الله عنه غطاءه، فأصبح بصره حديدا دَرَّاكا وقد لحقه اللطيف الخبير، بلطيف نوره، ولطيف أمره، ولطيف قدرته، ولطيف سره، فأبصر، فأصبح شاهدا ومشهودا. أصبح مشهودا من الحقيقة المحيطة التي استجاب لها بالاستقامة، وأصبحت

الحقيقة المحوطة مشهودة عنده، لأنه لا فرق بينه وبينها، وقد حققته بوصفها ليكون من جوهرها من سرها وجذوتها ونورها، فقام بسرها وجهرها وقد توحد معها وتوحدت معه، فأصبح الشاهد عين المشهود، والمشهود عين الشاهد، في كليها شاهدا ومشهودا.

هذا ما جاءنا به رسول الله، معرِّفا عن معناه من التقييد والإطلاق، عقلا كاملا وعقلا واسعا، وعقلا متسعا لعقول الخلائق، مقبلة عليه أو مدبرة عنه، من عوالم النور في جوهرها، أو من عوالم النار في مخبرها، وأنه جماع هذه الوجوه، وهذه المعارف، وهذه الكائنات، وأن هذا الذي هو له، وأن هذا الذي هو هو، وأن هذا الذي هو منه، إنما هو للناس جميعا من الله، غيب الوجود وظاهره، وسر كل موجود وباطنه.

فالناس في الله أيا ما كان اتجاههم، وأيا ما تلون باطنهم، فهم في الله والله لهم والله فيهم.

وإن محمدا عبده ورسوله، الذي عنون معاني العبودية له، وعنون معاني الخلقية منه، وعنون معاني الرسالة تصدر عنه مناديا إلى الحق، وتقوم وتظهر به ملبِّيا للحق. من معاني الحق تتجلى له إلى معاني الحق يتجلى لها وجها للحق لوجوه منه من الخلق. فكان طلعة لله ووجها له لوجوه لله في طريقها إليه والله من ورائهم محيط. فما دون وجهه المسربل بالجلال والإكرام، لا بقاء لوجه من وجوه الوجود، أو لكائن من كينونة قائم بغيره. ولكن الوجه ذو الجلال والإكرام هو صاحب البقاء وصاحب الدوام من {الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد}[1]. {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا}[2]. (من رآني فقد رآني حقا)[3]. (إن الله يبحث عن عبده كما يبحث العبد عن ربه)[4]. {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار}[5]، فيه منه تراه.

أي إله هذا الذي يبحث عن عبده؟! وأي عبد هذا الذي يبحث عن ربه؟! إن الأمرين في الإنسان. إن الإنسان يبحث عن رب له، كما أن الإنسان يبحث عن مطيع له، عن عبد له عن مجيب له.

فالإنسان هو الكائن ذو الوجهين الذي يبحث عمن يعلوه ليسجد له، ويبحث عمن يسفله ليعمل به. وقد حمل إلينا رسول الله عن الله، عن ربه -على ما عرفه -عن الله- وعلى ما اتصفه اسما له- (أنه ما ظهر في شيء مثل ظهوره في الإنسان)[6].

فالإنسان إذا ما اختار لنفسه طريق العبودية لله فهذه طريق ميسرة. وإذا اختار لنفسه طريق العزة بالله فهذه طريق معسرة شاقة مرهقة. {من كان يريد العزة فلله العزة جميعا}[7]. من كان يريد العزة فإن {لله العزة ولرسوله وللمؤمنين}[8]. إن الله يمنح العزة لمن يعزه. ولكن طالب العزة إنما يسلك طريقا تعثر فيه من قبله أصل من أصول الجنس استهوته العزة فاعتز بها. فجاء وقت الاختبار فيها،

فنكبته العزة وأضاعت منه الفرصة وذهبت منه بالمجال. وفاز بها الضعيف. فاز بها الذليل. فاز بها من وضع نفسه دون المعتز ومن وضع نفسه دون مخلوقاتٍ ما كان يعلم أنها صنع الله به وأن الله به أوجدها. أما المعتز فقد ربطته العزة بها، فاستكبر عن التوبة، وعن الرجعة عنها، لأنها حقيقة، ولأنها غريزة. وقد امتزجت به فأصبح بها عزيزا، فاعتز بها على الأعز من العزيز الحكيم في ثوب ضعفه. وجادل بها عن نفسه عزيزة، واستأذن أن يعمل بها، وأن يكون اختباره فيه في مجال اختباره بسؤال الأعز معه من مجال قيامه ومن دائرة علمه سائلا بأن يعاد اختبارهما بعد التجربة. فأنصفه العزيز الحكيم. وأعطاه حقه وأقره على طلبه، فأزمع بها أن يغوي الأعزاء، فإن قسطه منها لوافر، وأنه بها عليهم لعزيز، وأنه مستجلبهم بها إلى ما وقع فيه من رؤية الغناء بها، إلا عبادا أدركوا الضعف مع الأعز حيثما وجد في وعيهم، وحيثما ظهرت له عزة، وضعفوا حتى مع مظاهر الضعف من أمثالهم. فتزاحموا على الضعف له متخلقين بما رضي لهم، وبما هيأ لهم أسبابه من مظاهر الضعف المبرزة لشرف العبودية له. فقام العزيز المنفرد بعزته حارسا على ضعفهم. فامتنعوا-على ضعفهم- على فتنة الأعز المختبر لأهل العزة. لا بل تركهم الحكيم على أمرهم في الضعف له، وحفظ عليهم ضعفهم فما زاحموا المعتزين في صفة ولا عطاء ولا في وصف ولا في وظيفة.

هؤلاء هم عباده. هم أقوى الأقوياء لأن الذي يقوم على حراستهم في ضعفهم، إنما هو أقوى الأقوياء. هو العزيز على الأعزاء. هو السلطان على الأقوياء. هو حكيم الحكماء. هو مدبر الأمر. هو سر الوجود وروحه. هو الغيب والشهادة. هو القرب والبعد. هو {ليس كمثله شيء}[٩]، وقد جعل في هؤلاء الضعفاء في مظاهرهم، أشداء القوى في بواطنهم. هم وعي الوجود. هم أمره وتوجيهه. هم من إذا فعلوا، كان فعلهم فعله. هم من إذا أرادوا كانت إرادتهم إرادته. هم من إذا سنوا كانت سنتهم شرعته، ومن إذا شرعوا كانت شريعتهم هديه وسنته، ومن إذا دبروا كان تدبيرهم حكمته. ومن إذا حكموا كان حكمهم إرادته. هم عباده الذين لا فرق بينهم وبينه. في قيامهم قيامته وقيام إرادته.

تأملوا رسول الله، وهو يوقف لبعض فعله من سنته، من صلاة القيام في رمضان وقد طابت لقومه، فيطلبون إليه الرجوع إلى فعله، يقومون معه فيه فيقول لهم خشيت أن يكتب عليكم. إنه يعلم كيف يُكتب عليهم ما يكتب، وكيف يرفع عنهم ما يرفع.

تأملوا رسول الله، وهو يؤدي الفروض قضاء بعد أوقاتها حتى يشرع لقومه، حتى يكون إتيانهم للمفروض على مثال مما فعل قضاءً إنما هو عمل مشروع وعمل مجاب مقبول.

تأملوا قول الله إذ يصفه قائلا أو فاعلا، وما ينطق عن الهوى {إن هو إلا وحي يوحى}[١٠] إنما هو الوحي يوحي. وإن هذا الذي تعرفون إنما هو وحي يوحي، وحي يمدكم. هو الوحي نفسه لكم. إن وحيه من نفسه {ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه. وقل ربي زدني علما}[١١]. {إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين}[١٢].

لقد علم وهو رسول الله في حقيقته بعد أن كشف الغطاء عنه له، أن مصدر الوحي منه، أنه هو الوحي، فتكشف له قبل أن يأتيه وارد منه، بطيف من نفسه، ما سيُحمل إليه، فيقال له منه لا تعجل بكشف أمرك، لا بل وعندنا لك ما هو أكثر من ذلك. قل ربي زدني علما، سيصدر منا قضاء بكشف هذا منك يوما. إنا نهيئك الآن إلى ما قبل ذلك من مصدر الوحي إليك. إنا نهيئك لأنفسنا.. إنا نهيئك لأنفسنا. إنا نهيئك لنا، أمرا ووجها ويدا وطلعة، وخلافة وحضرة، وحقا وتجليا، وشفيعا ورحمة. إنا نهيئك لما لم نهيئ له رجلا من قبلك في عالمك من كونك في بشريتك، وإن كان على سنن من فعل سابق لنا في قديم عوالمنا فَعلنا ما فَعلنا بك. وقد كتبنا على أنفسنا الرحمة وقد جعلناك منا رحمة لعوالم خلقنا، ولعوالم أمرنا، ولعوالم طلبنا، ولعوالم الغفلة عنا، ولعوالم الاحتجاب دوننا من عوالمك وعوالم ربك. أنت رحمة منا للعالمين، في عالمك من عالمنا.

تأملوه وهو يقول (أدبني ربي فأحسن تأديبي)[١٣]. (أنا أقربكم إلى الله وأخوفكم منه)[١٤]. (أنا أعلمكم عن الله وأخوفكم منه)[١٥]

إنه أضاف وقاس قربه من الله مضافا إلى الناس من الحق، ولم يقس هذا مضافا إلى الله في معناه من الأزل. وإذ لا أبعاد لله عنده، ولا أبعاد لله عن الناس، ولكن معرفته لله، ومعرفته عنه، أنه تعالى في عظمته، وأنه في سعته، وأنه في رحابته، يتساوى قربه مع تعاليه في لانهائيه، ولكن الذي يقاس بالتفاوت، ويقدر بالمسافات والأمكنة، ويقدر بالأزمنة والعصور، إنما هي الكائنات فيه، بعدا وقربا عن معاني الحق فيها، فهو لا يعرف الزمن جل شأنه، فهو ما قبل الزمن، وما بعد الزمن. ولا يعرف المكان تعالت قدرته، لأنه قبل المكان وجوده، وبعد المكان وجوده. فكل مكان منه قريب، وكل زمان أمام ناظره قريب.

تأملوا حديثه إليكم وهو يقول {يرونه بعيدا ونراه قريبا}[١٦]. تأملوا وهو يتحدانا بشدة القرب بقوله {إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب}[١٧].

إن الصبح المراد في هذا المعنى، إنما هو فجر الحياة بالموت، وقد خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا. إن سكرة الموت بالحق الذي كنا عنه نحيد هي الصبح الذي ينبهنا إليه، ويلفت أنظارنا إلى شدة

قربه، والأعمار بيده. والإنسان منا إذا ما استيقظ وأدرك معاني المولد له في الموت عنه، إنما ينتظر بتدبره وعمله معاني الموت له، وهي فجر الحياة إن اجتاز هذه النافذة من عالم الدنيا، طفلا يقظا سليما معافا، أما إذا اجتازها وهو سقط، وهو علقة ضالة لم تتخلق في رحم الحياة الاعتبارية كان من (كل الناس هلكى)[١٨]، كما قال رسوله، ولم يدخل في الاستثناء، (إلا العالمون)، (والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم)[١٩].

فهل حرص الإنسان من الناس على نفسه؟ هل قدر وعرف أنه في هذا النوع من الوجود، إنما هو متواجد فيما قبل الحياة لأن {الدار الآخرة لهي الحيوان}[٢٠] في الحقيقة والواقع لو كان الناس يعلمون أمرهم وشأنهم؟ وأن الحياة لا يخلقها الله إلا بعد الموت؟ وأن الموت يسبق الحياة؟ ألم يقل لنا الله {الله يحيي الأرض بعد موتها}[٢١] ؟ وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها، لمحيي الموتى؟ وأن هذه الحياة، إنما هي حياة الأرض وليست حياة الناس؟

فبدء الحياة لا يكون إلا بعد الموت، أما ما قبل الموت فهذا وجود لا يوصف بالحياة، ولكنه نوع متميز من الوجود، جامع لكثير من مثالية الحقائق، ومن مثالية المعاني، ومن الأوهام، يحملها القيام البشري في هذا النوع من التواجد، وعلى سبيل العارية أو الأمانة، لا على سبيل الملك، فإن أدركوها امتلكوها، وإن أدركوها حرصوا عليها، وإن حرصوا عليها اكتنزوها. أما إن غفلوا عن معانيها وحقائقها، وقاموا في أوهامها، فإنهم بعد الموت مفتقدو الحقائق، فغير واجديها في أنفسهم (الصيف ضيعت اللبن)[٢٢] وأدركوا قيامهم بأوهامهم.

فهذه الحياة على تفاهتها بين حيوات الإنسان في عوالم الله، حياة قيمة ظهرت فيها الأديان، وتحدث فيها الديان على لسان رسله، وظهرت وجوه الرحمن بإبراز عباده يمشون على الأرض هونا، يسالمون الجهلاء، ولا يعانون الأعزاء بأنفسهم، لهم دينهم ومن يتبعهم، ولخصومهم دينهم ومن يتبعهم. بهم يتميز الناس فريق للجنة وفريق للسعير.

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أهل الكسب والانتفاع بالرحمة والنعمة لما خلقنا له في هذه الدار وأهلها من العبودية له بحكمته ورحمته، وأن يأخذ بنواصينا إلى الخير، وأن يهيئ لنا أسباب السلامة، وأن يجنبنا أسباب الندامة، وأن يولي أمورنا خيارنا، ولا يولي أمورنا شرارنا جزاء عملنا، وأن يعاملنا بعفوه ورحمته على ما وعد من غلبة رحمته، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائه، ببركة نبينا وسائر النبيين، ومرشدنا وسائر المرشدين.

أضواء على الطريق

) العقـــل أصـــل ديني)[٢٣] عن الرسول.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة محمد - ٢

٢ سورة الإسراء - ٨١

٣ استلهاما من الحديث الشريف: مَن رآنِي فقَدْ رَأَى الحَقَّ؛ فإنَّ الشَّيْطانَ لا يَتَكَوَّنُنِي." صحيح البخاري. وقد جاء بلفظ "مَن رآنِي في المَنامِ فقَدْ رآنِي، فإنَّ الشَّيْطانَ لا يَتَشبه بي". صحيح ابن حبان.

٤ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٥ سورة الأنعام - ١٠٣.

٦ مقولة صوفية.

٧ سورة فاطر - ١٠

٨ سورة المنافقون - ٨

٩ سورة الشورى - ١١

١٠ سورة النجم - ٤

١١ سورة طه - ١١٤

١٢ سورة التكوير – ١٩، ٢٠

١٣ حديث شريف. جاء في الموسوعة الحديثية لابن حجر، والعسكري في كتابه "الأمثال"، والسَّرَقُسْطِيِّ في كتابه" الدلائل "، والسيوطي في كتابه" الجامع الصغير"، وابن السمعاني في" أدب الإملاء "، وأبو نُعَيم الأصفهاني في تاريخ أصبهان.

١٤ من معنى الحديث الشريف: "إنَّ أتْقَاكُمْ وأَعْلَمَكُمْ باللَّهِ أنَا." صحيح البخاري. أيضا "... ما بَالُ أقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أصْنَعُهُ؟! فَوَاللَّهِ إنِّي لَأَعْلَمُهُمْ باللَّهِ، وأَشَدُّهُمْ له خَشْيَةً." أخرجه البخاري ومسلم.

١٥ حديث شريف: "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا." صحيح البخاري.

١٦ سورة المعارج - ٦:٧

١٧ سورة هود - ٨١

١٨ حديث شريف جاء في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي باب "حقيقة النية ومعناها". وجاء في تاريخ دمشق لابن عساكر: سمعت ذا النون المصري يقول: "الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، قال الله عز وجل: "ليسأل الصادقين عن صدقهم."

١٩ حديث شريف جاء في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي باب "حقيقة النية ومعناها". وجاء في تاريخ دمشق لابن عساكر: سمعت ذا النون المصري يقول: "الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، قال الله عز وجل: "ليسأل الصادقين عن صدقهم."

٢٠ سورة العنكبوت - ٦٤

٢١ سورة الحديد - ١٧

٢٢ وردت القصة في روايات مختلفة تلتقي في فكرتها الجوهرية: الخيرِ المُضيّع بالطَّمع، أو فيمن ضيع الفرصة وفوّتها. ورد المثل في (مجمع الأمثال) للميداني.

٢٣ عن علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سنته فقال: المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني في الصلاة. ا المحدث: العراقي، وصفه أنه موضوع، وذكره الغزالي في الإحياء، والقاضي عياض في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ومعظم المتصوفة.